سنوات الجحيم

أوراق مراسل
صحفي بالعراق

الفصل السادس

سيف
الجنوب الشيعي

obeikan.com

obeikan.com

بعد ترتيب وتخطيط مسبق كنت قد قررت القيام بزيارة للجنوب الشيعى وأعنى البصرة والناصرية والعمارة تلك المدائن العتيقة شديد الثراء بالتاريخ والقيم إلا أن تحذيرات أمنية ألغت تلك الزيارة التى كانت تكليلا لزيارات عابرة لمدن تضرب باستقرارها أعماق العراق، خاصة فى ظل الظرف التاريخى الذى تمر به أرض الرافدين وذلك الجدل العقيم المبنى على تصنيفات قهرية لأبناء بلد اشتهر بتنوعه الدينى والعرقى مع الإحتفاظ بمنظومته القيمية التى أسس لها نظامه العشائرى والاجتماعى عبر آلاف السنين .

كان ظهور جماعة تعرف باسم « سيف الحق» مع ما حملته أيام أغسطس القائظة من مؤشرات على عودة العنف مبررا كافيا لإلغاء الرحلة ،حيث عاد الشباب الملثم المرتدى للزى الأسود المرعب للظهور فى الشارع العراقى خاصة محافظات الجنوب الشيعى ليثير الرعب والقلق ويعزز المخاوف من دورات لا نهائية من العنف الأعمى والقتل غير المبرر خاصة مع عدم معرفة المرجعية التى تحرك تلك الجماعة ذات الزى الأسود .

كان مقررا أن تشمل الرحلة البصرة عاصمة العراق الاقتصادية التى تبعد حوالى ٦٠٠ كم جنوب بغداد والتى كانت في سبعينيات القرن الماضى أجمل من دبي حاليا ..فيها البترول وملتقى دجلة والفرات وأكبر المصانع مثل مصنع البتروكمياويات وهو اكبر مصنع في الشرق الأوسط وفيها معمل الورق في منطقة تسمى «الدير» وهى تواجه كلا من الكويت و إيران وفيها حقول مجنون أكبر الحقول النفطية في العراق .

كان أهل البصرة حتى نهاية الثمانينيات وأوائل التسعينيات علمانيون لا ينتمى أيا منهم إلى التيار الدينى ،حيث كانت البصرة أم الفنون ومنها الخليل بن احمد الفراهيدي الذى تبقى منه تمثال كبير ومنها بدر شاكر السياب أحد رواد الشعر الحديث الذى يتوسط تمثاله أحد أهم ميادين البصرة ليشهد على تاريخ المدينة التى تحتضن الكورنيش والموانئ والسفن قبل أن تصبح جبهة حربية من كل النواحي إبان حرب الثمان سنوات مع إيران فى ثمانينيات القرن الماضى وقبل أن يعصف بها التطرف المتشح برداء الدين بعد عام ٢٠٠٣ الذى كان بداية لفرض الولاء للأحزاب الدينية بكل مسمياتها ومرشديها ومرجعياتها مثل حزب الفضيلة الإسلامى والتيار الصدرى وحزب الدعوة وغيرها من الأحزاب ذات الواجهة الإسلامية .

ورغم متعة زيارة جامعة البصرة فى منطقة المعقل التى تضم أحد أهم أقسام الإعلام فى العالم العربى إلا أن متعة مشاهدة حقول النخيل سواء النابضة بالحياة أو تلك التى احترقت وغادرتها الحياة في معركة الفاو لا تفوقها متعة .

كما كان مقررا أن أزور الناصرية وهى مركز محافظة ذى قار وتبعد عن بغداد حوالى ٣٦٦ كم جنوبا وخاصة الشطرة وسوق الشيوخ وشارع الحبوبي الذى يتوسط المدينة وكذلك مجموعة الأهوار التى تتمتع بحياة برية لا مثيل لها فى العالم من حيث تنوع ووفرة أحيائها وطيورها مثل أهوار الجبايش والحمار « بفتح الحاء وتشديد الميم» وهور أبو عجل .

كما كان مقررا أن ألتقى بفنان العراق الشهير ابن الناصرية حسين نعمة الذى أثرى الطرب العراقى كغيره من أبناء الناصرية مثل صباح السهل وحميد منصور وداخل حسن وحضيري أبو عزيز اللذين كانت القاهرة تحتضنهما كثيرا في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي ويروى صديقى الصحفى عادل فاخر أن حضيري ارتجل أغنية شهيرة على أحد مسارح القاهرة وهى «عمي يا بياع الورد» والتى لاقت نجاحا باهراً وقتها ، أما داخل حسن فقد التقى السيدة أم كلثوم التى أعجبت بصوته جدا مطلع السبعينيات وفي لقاء تلفزيوني روى لمقدمة برامج تدعى نضال فاضل أن أم كلثوم قدمت له هدية عبارة عن تنورة « جيب» لزوجته (أم كاظم) وقال لأم كلثوم ان أم كاظم لا تلبس تنورة لأنها لا تعرف كيف تلبسها لأنها تضع على رأسها عصابة ولا يمكن أن ترتدى سوى الجلباب الأسود .

ومدينة الناصرية الحالية بنيت عام١٨٧٠ ميلادية على ضفاف نهر الفرات .بناها الأمير ناصرالأشكرياشا السعدون (أمير قبائل امارة المنتفق) وسميت على اسمه. وكان يسمى مركز المدينة سابقا عكد الهوا و هي المنطقة المسماة حاليا الحبوبي . وبنيت هذه المدينة بعد أن كثرت هجمات القبائل العربية التي كانت تجوب صحراء الجزيرة العربية على مدن جنوب العراق وفي مقدمتها كربلاء والنجف فكانت حاجة الدولة العثمانية لقبيلة قوية تحمي جزءً من جنوب العراق خاصة بعد أن بدأت الدولة العثمانية تفقد جزء من قوتها في تلك المنطقة حيث كلف الأمير ناصر السعدون وهوة شيخ أقوى القبائل في جنوب العراق آنذاك بحماية مدن الجنوب من هجمات القبائل الأخرى مقابل تزويد القبيلة المذكورة بالأسلحة والأعتدة والأموال وتم اختيار القبيلة (آل السعدون) السنية المذهب لوجود نوع من الفتور بين السلطات العثمانية والقبائل (الشيعية) بعد ثبوت تورط أفراد من المدارس الدينية الشيعية في كربلاء والنجف وقسم كبير من اعيان هاتين المدينتين في اتصالات سرية مع دولة إيران المعادية للإمبراطورية العثمانية في تلك الحقبة .تقع مدينة أور الأثرية و الزقورة الشهيرة على بعد كيلومترات معدودة من المدينة و التي يعود تاريخها لآلاف السنين. دخل الإنكليز مدينة

الناصرية بشكل كامل شهر يوليو عام ١٩١٥ عند استعمارهم للعراق في بدايات القرن الماضي.بعد معركة الناصرية الشهيرة حيث قتل ٢٠٠٠ جندي عثماني و ٤٠٠ جندي بريطاني و هندي بريطاني شهدت المدينة عدة اضطرابات في فترة حكم الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين حيث أنها شهدت ما يسمى بالانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١، بعد عملية عاصفة الصحراء.

و عند احتلال العراق عام ٢٠٠٣ دخلت قوات التحالف مدينة الناصرية بعد معارك عنيفة مع فدائيي صدام و بعض من الضباط والأهالي استمرت منذ ٢٣ مارس/آذار حتى ٢٩ مارس/آذار ٢٠٠٣ أدت إلى تدمير العديد من مباني المدينة مثل مبنى البهو ومبني البلدية و مدينة الملاهي إضافة لمقتل ما يقارب ال ٧٠٠ عراقي و ٢٢ جندي مارينز أمريكي و جرح ١٥٠ جندي مارينز أمريكي آخرين وأسر ثم تحرير عدد من الجنود الأمريكيين من اشهرهم جيسيكا لينش .

أصبحت مدينة الناصرية تحت قيادة القوات الإيطالية التابعة لقوات التحالف وتضم القيادة الإيطالية قوات كورية جنوبية و رومانية و غيرها.

كانت مدينة الناصرية ومحافظة ذي قار عموما ثاني محافظة عراقية تسلم قيادتها الأمنية للقوات العراقية بشكل كامل وكان هذا عام ٢٠٠٦ بعد محافظة المثنى

١ - النموذج البصرى

خلال سنوات المذبحة صارت عروس الجنوب العراقى ساحة صراع دموى اجتمعت فيه كل عوامل النكبة .. صراع النفوذ والسلطة والسيطرة على تهريب النفط .. صراع المجموعات المسلحة بكافة انتماءاتها الداخلية والخارجية .. صراع الإرادات التى حسمت للتيار المتشدد الذى صبغ الحياة فى البصرة مركز الفنون بلون السواد واتشحت مبانيها برايات الموت .. وامتلأت جدرانها بقطع القماش التى تحمل نعى من اختفى أو قتل .. صارت البصرة التي تعد ثاني أكبر مدينة في العراق فى وضع مثير للقلق رغم أنها أفضل قاعدة اقتصادية للعراق لأنها تعانى من التوتر الدائم الناتج عن سيطرة كافة أنواع الميليشيات المسلحة ذات الرداء الأسود وهو ما جعلها تبقى في حالة اضطراب دائم ..اختفاء الأطباء والمدرسين وأصحاب المهن الأخرى بات أمراً شائعاً مثلما هو الحال مع المواجهات التي تحدث بين الميليشيات المتنافسة المرتبطة بأحزاب سياسية .. جيش المهدى .. ثأر الله .. كتائب حزب الله.. قوات بدر .. حزب الدعوة .

وإذا كانت البصرة قد تعرضت لظلم وقسوة واليها الحجاج بن يوسف الثقفي وبلغت حد قتله كل من طالته يده من النبط وغيرهم من سكانها الأصليين حفاظاً على العرق العربي كما تشير كتب التاريخ وبحسب وصية الخليفة عبد الملك بن مروان كما يوردها الجاحظ في البيان والتبيين، فقد طالت يد القسوة في الزمن الحديث العديد من سكانها من العرب لا لشيء سوى اختلافهم الفكري أو المذهبي أو السياسي أو الاقتصادي مع حكامهم

وفي الوقت الذي غادر أبناء الطوائف المسيحية واليهودية البصرة كانت طائفة أخرى تهم بالمغادرة إلا وهي طائفة الصابئة المندائيون الذين يعتقدون بأنهم سكان العراق الأصليون حيث ينحدرون من أصول كلدانية سكنت العراق قبل أن يسكنه السومريون، وترجع لهم إحدى تسميات مدينة البصرة (بصريا ثا) وهي أقدم تسمية للمدينة في كتب التاريخ. . حيث امتهن هؤلاء صياغة الحلي الذهبية والفضية منذ أقدم العصور، وعرفوا بديانتهم المائية، وهي أقدم ديانات وادي الرافدين، وما زالوا يتكلمون اللغة المندائية القديمة حتى اليوم وتراجع عددهم من ٢٠٠٠ عائلة قبل الحرب إلى أقل من ٢٠٠ عائلة حالياً.

وتشير التقديرات غير الرسمية إلى تراجع عدد العائلات السنية في المدينة بسبب تعرضها إلى مضايقات المتشددين من الشيعة، واستبعادها نهائياً من الحياة السياسية حيث لا يوجد ممثل لها داخل مجلس المحافظة على رغم أن نسبة السنّة بين السكان حالياً لا تقل عن ٢٥ في المئة، وقد انخفض وجودهم في مناطق كانت مقفلة لهم قبل ٧٥ عاماً كبلدة الزبير وأبي الخصيب بسبب تدفق آلاف العائلات الشيعية على المدينة.

كما لم يسلم سكان البصرة الشيعة الأصليين من عمليات المضايقة والتهميش أمام زحف عشائر المعدان من سكان الأهوار على قراهم حتى صارت جواميس وأبقار هؤلاء تجوب بساتين الملاكين في أقضية الفاو وأبي الخصيب وشط العرب ما أضطر الكثير منهم إلى مغادرة البصرة بعيداً عن الصدامات اليومية .

تتضمن قائمة الضحايا محققين قانونيين وسياسيين وشيوخ عشائر وأكثر ما كان يدفع للاضطراب هو قتل النساء الذي أصبح اتجاها واضحا بسبب عدم اعتبار النساء من قبل المتطرفين الدينيين ورعات.

كانت أغلب أعمال القتل تتم على أيدى مسلحين يستخدمون سيارات تعود للشرطة.بعد أن أعطيت هذه السيارات للأحزاب السياسية واختفى رجال شرطة البصرة بينما ينتشر فى الشوارع رجال ميليشيات يرتدون ملابس شرطة.

ما يقرب من ٢٠ حزبا سياسيا شيعيا تعمل مع ميليشياتها فى المدينة ذات

الأهمية الاستراتيجية ، وكلها تتنافس فيما بينها في أغلب الأحيان بطريقة عنيفة من أجل السيطرة على قطاع النفط وعوائد الميناء وعمليات التهريب عبر الحدود الإيرانية القريبة وعلى السلطة السياسية للسيطرة على العصب الاقتصادي المركزي للعراق لذلك اختفت التوترات الطائفية عن المدينة مثلما هو الحال في المدن العراقية الأخرى، إلا أن الصراع لم يختف عنها.

شكّل صعود قادة الكتل والأحزاب الشيعية الإسلامية من المأزومين مذهبياً ومن الذين دخلوا المدينة عقب سقوط النظام السابق قادمين من إيران عنصر طرد لكثير من الطاقات الحقيقية من المسيحيين والصابئة والسنة ومن الشيعة المعتدلين حتى صار انفرادهم بالسلطة مؤشراً على تدمير حياة البصرة السياسية وخراب اقتصادها.

اتسعت رقعة المصالح المالية والهيمنة السياسية بين الكتل والأحزاب التي تتصارع في المدينة، ويحاول كل من هؤلاء أن يجد له الدائرة المناسبة، فحزب الفضيلة يمسك بمفاصل شركة نفط الجنوب ونقاط التصدير بينما يبسط الصدريون سلطتهم على دائرتي الكهرباء والصحة، في حين يهيمن المجلس الأعلى الإسلامي و حزب الدعوة على الأجهزة الأمنية والمنافذ الحدودية، ومثلهم تحاول منظمة «ثأر الله» فرض سيطرتها على الموانئ في أم قصر وأبو الفلوس والفاو بالتعاون مع المهربين من ذوي القدرة المسلحة، حيث تشهد سواحل نهر شط العرب والجزر الصغيرة فيه مواجهات مع شرطة الحدود ورجال الجمارك .

ألقت الخلافات السياسية والمصالح المالية بين الكتل والأحزاب بظلالها على امن وحياة المواطن البسيط، ولم يَرُق حسم مجلس القضاء الإداري قضية عزل المحافظ التي نادى بها أعضاء قائمة البصرة الإسلامية لصالح محمد مصبح الوائلي (من الفضيلة) لمديري مكتب رئيس الوزراء نوري المالكي حيث أصدروا تعميماً للدوائر الرسمية في المدينة بعدم التعاون مع الوائلي من اجل تحجيم دوره الإداري السياسي، وهكذا تم تعليق المعاملات الرسمية بين دوائر الوزارات والسلطة التنفيذية في المدينة الممثلة بشخص المحافظ.

وقد بلغ حد غياب سلطة الدولة وتنافس عناصر الأحزاب المتنفذة فى البصرة إلى حد الحرب العلنية بين حزب الفضيلة الإسلامى الذى كان يسيطر على مقدرات الأمور بالمحافظة من جهة والتيار الصدرى الذى يتزعمه مقتدى الصدر والمجلس الأعلى الإسلامى برئاسة عبد العزيز الحكيم من جهة أخرى حيث حاول الجانبان إزاحة محافظ المدينة محمد مصباح الوائلي المنتمى إلى حزب الفضيلة بذريعة أنه يأخذ وظائف أكثر لعناصر حزبه خصوصا في قطاع النفط قياسا

بحصص التنظيمات السياسية المحلية الأخرى وعندما فشلوا جرت ثلاث محاولات لاغتيال الوائلي تارة بزرع قنبلة على حافة الطريق أثناء توجهه إلى عمله وتارة بإطلاق النار على بيته حيث قتل على الأقل اثنان من حراسه.

وبعد العملية العسكرية التي أطلق عليها صولة الفرسان والتي ورد ذكرها تفصيلا في الجزء الأول من الكتاب ومع أن انتشار قوات الجيش قد منح البصرة «استقرارا ظاهراً»، فأن عروس الجنوب لم تشهد تحسنا أمنيا فعليا، واستمرت تساؤلات المواطنين عن مصير لجان كثيرة أمر بها المالكي «وتبخرت» بعد فترة وجيزة، أبرزها لجنة تعرف بلجنة الشكاوي خاصة بتلقي شكاوي المواطنين المتعلقة بالأمن والخدمات العامة، كما أن هناك قضايا أخرى أكثر تعقيداً لم تحل كما روى لي الكثير من أهالي البصرة خلال زيارة خاطفة شتاء العام ٢٠٠٩ أبرزها الكشف عن مصير المفقودين والمختطفين على يد الميليشيات المسلحة، أو على يد الجهات الأمنية نفسها.

واحدة من أكثر قصص الخطف تداولا في البصرة نشرتها وسائل إعلام عديدة نقلا عن زوجة العالم النووي المخطوف «هيثم عودة» والتي جرت وقائعها بداية عام ٢٠٠٧ عندما كان «عودة» وهو رئيس قسم الهندسة الكيمياوية بجامعة البصرة يقود سيارته وبجانبه زوجته الأستاذة بالكلية نفسها متوجهين إلى منزلهما في مجمع الأساتذة بمنطقة العشار الشهيرة التي تعتبر مركز محافظة البصرة عندما اعترضت طريقهما سيارتان إحداهما تعود إلى الشرطة ونزل من السيارة الأخرى شخصان تقدما من الأستاذ وطلبا منه بصورة مهذبة مرافقتهما إلى مقر عملهما بعد أن عرّفا عن نفسيهما أنهما من إحدى الجهة الأمنية بهدف الاستفسار عن أمور علمية تخص عمله لن تستمر أكثر من ساعة أو اثنتين .

وسارعت الزوجة إلى أخبار عائلة زوجها، وترقبوا عودته غير أنه لم يعد وانتظر أهله وأقاربه وزملاءه أي معلومة عنه وعن طريق الكلية والأصدقاء قاموا برفع شكوى إلى الجهات الأمنية وعند ذهابها إلى الدائرة الأمنية التي ادعى الخاطفون انتمائهم إليها لتقديم إفادتها حسب نصيحة محام صديق للعائلة تكفل بالقضية، لاحظت احد الشخصين الذين اقتادا زوجها موجوداً في الدائرة نفسها، وقد أخبرت الضابط بأن من اعتقله موجود في الدائرة ووعدها «خيراً». وتتابع زوجة العالم المخطوف «مرت الأيام دون نتيجة تذكر إلى حين قاد رئيس الوزراء عمليات صولة الفرسان.. حينها عاودت التقدم بشكوى إلى الجهات الأمنية، لكنني فوجئت بالمحامي يعتذر عن الاستمرار بمتابعة الشكوى بعد تلقيه عدة مكالمات تدعوه إلى ترك القضية».

وتقول زوجة العالم المخطوف أن هناك شكوك تولدت لدى العائلة من أن

الدكتور «عودة» تم نقله إلى إيران كما أشيع باعتباره عالم في مجال الفيزياء يمكن الاستفادة من خبراته في المجال النووي كما خمّن أكثر من شخص مقرب من العائلة، إلا أن السيدة عودة لا تعلق على هذه التكهنات، وهي أسوة بعائلات أخرى تم خطف أفراد منها على يد جهات تخترق المؤسسة الأمنية، ما زالت تمني النفس بأن يكون زوجها على قيد الحياة، وأن تسهم وعود المالكي في إعادته.

٢ - مشروع انفصال

لم تهدأ أحلام الانفصال أو تطوى مشروعات التقسيم بالعراق ليوم واحد بل تخبو قليلا ويهدأ ضجيجها ليعاود مريدوها الكرّة من جديد ويطرحوها بنفس المسميات أو بمسميات أخرى .. تارة إقليم الجنوب الشيعى الذى يضم أيضا محافظتى ميسان وذى قار فى إطار الدولة الفيدرالية على شاكلة إقليم كردستان المتمتع بالحكم الذاتى شمال العراق وهو المشروع الذى يتبناه المجلس الأعلى الإسلامى وتارة إقليم البصرة المستقل الذى يروج له النائب البصرى وائل عبد اللطيف وغير ذلك من مشروعات الانفصال بالبصرة التى تتبناها قوى سياسية عديدة ترى البصرة نواة لدولة شيعية وفقا لمقترح نائب الرئيس الأمريكى جو بايدن القائم على تقسيم العراق إلى ثلاث دول أو إقليم ضمن العراق الفيدرالى وهى دولة كردية فى الشمال وسنية فى الوسط وشيعية بالجنوب.

وقد انطلق آخر تلك المشروعات وهو الاقتراع على إقليم الجنوب في ١٤ كانون الأول/ ديسمبر من العام ٢٠٠٨ واستمر شهراً كاملاً في ٣٤ مركزاً للتصويت منتشرة في مناطق محافظة البصرة برعاية ودعم الدكتور وائل عبد اللطيف إلا أن النتيجة كانت هزيلة ومخيبة لآمال مؤيدي أنصار إقليم البصرة بعد الحماس الشعبي الذي قوبل به المشروع في الأيام الأولى من حملة جمع التواقيع ، وأرجع المراقبون فشل المشروع إلى اختيار الداعين لفدرلة البصرة وقتا غير مناسب لطرح مقترحهم للتصويت الشعبي خلال شهر محرم الحرام الذى يواكب أيام حداد قاسية بمناسبة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء التى تعتبر من أكثر المناسبات تقديسا لدى الشيعة وتشهد المناطق الجنوبية تحديداً حالة من الركود فى كل مناحى الحياة كما أن طرح المشروع بالتزامن مع انتخابات مجالس المحافظات التى أجريت فى يناير من العام ٢٠٠٩ جعل الأمر بمثابة مغامرة خاسرة حيث أثار الشكوك حول اختيار ذلك الوقت بالضبط، من جانب أنصار الفيدرالية من خلال التصويت لإقليم البصرة واستمالة الناس لانتخابهم لمجلس

المحافظة.

وأثار المشروع أيضا الشكوك حول نيه مروجي مشروع اقليم البصرة في التفرد بالثروة النفطية الهائلة في وقت تسعى قوى إسلامية بقيادة المجلس الأعلى الإسلامي العراقي الذي يتزعمه عمار الحكيم على بلورة مشروع إقليم الجنوب أو المحافظات التسع أو ما يسمى بـ«إقليم الزهراء».

ولعل من أسباب انكسار مشروع إقليم البصرة هو التركيز على الأحياء الشعبية الفقيرة ذات الكثافة السكانية العالية، كالحيانية وحي خمسة ميل والقبلة وغيرها من المناطق ، حيث نصبت الخيام ورفعت اللافتات الداعية للتصويت للإقليم وكون أغلب المشرفين على الحملة الدعائية من الشباب قليلي الخبرة أو الذين ليس لهم وزن في مناطقهم رغم أن أغلب المجالس البلدية المسيرة لشؤون تلك المناطق يديرها أشخاص من حزب الدعوة الذي يتزعمه نوري المالكي أو أنصار التيار الصدري المناوئين للمشروع .

وكان عدم فهم الناس لمشروع إقليم البصرة واستغلال القوى الرافضة لذلك الجهل الأثر الأكبر في انكسار المشروع ، فهناك كثير من الناس لم يميزوا بين الحملة الدعائية لمشروع الإقليم وانتخابات مجالس المحافظات ، ولعل خير مثال على ذلك هو ما جرى في إحدى الندوات التي أقيمت في قضاء أبي الخصيب، جنوب البصرة، حيث انبرى رجل مسن رافضا مشروع الإقليم بصورة قاطعة مبررا سبب رفضه بالخشية من وضع جوازات سفر لزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء / مراقد أئمة الشيعة وعلى رأسها مرقد الإمام علي ومرقد الإمام الحسين وأخيه غير الشقيق العباس بن علي / في حال نجاح المشروع! .. كما أن بعض الذين صوتوا للمشروع فعلوا ذلك بعد إشاعات تحدثت عن هدية مالية تقدر بحوالي ٢٥٠ ألف دينار (٢٠٠ دولار تقريبا) يقدمها حزب الفضيلة لمن يصوت للمشروع، إضافة إلى بطاقة صفراء تضمن لحاملها في حال نجح المشروع بأولويته في الحصول على تسهيلات عمل أو ما شابه ذلك!

٣ - الزبير

تعود فكرة جعل قضاء الزبير التابع لمحافظة البصرة وتقطنه أغلبية سنية في محيط من السكان الشيعة المحافظة العراقية التاسعة عشر إلى بداية التسعينات قبيل حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ حين أراد صدام حسين ضم الكويت إلى العراق وإلحاقها بقضاء الزبير تحت مسمى محافظة الزبير ، لكن فشل صدام حسين في حربه، قضى على هذا الحلم ، وبعد عشرين عاما تقريباً، تعالت بعض الأصوات

لإحياء مشروع «محافظة الزبير» من جديد، لكن بالطبع من دون احتلال الكويت .

وطالب العديد من أهالي الزبير بجعل قضائهم التابع لمحافظة البصرة، محافظة مستقلة بذاتها بسبب الإهمال الكبير والأوضاع الخدمية والبيئية المتردية التي يعاني منها القضاء بالرغم من إمكاناته الاقتصادية الهائلة.

ويقع مركز قضاء الزبير على بعد ٢٠ كم جنوب غرب البصرة على الحدود مع الكويت، وتبلغ مساحته حوالي ٥٠ ٪ من مساحة البصرة .

ويعد قضاء الزبير واحداً من أقدم مدن العراق لكنه بلا شوارع معبدة ولا أسواق نظامية، وهو المدينة التي يضرب بها المثل في شحة مياه الإسالة / الماء الصالح للشرب ، رغم أن الحكومة العراقية قد خصصت لمحافظة البصرة والمحافظات النفطية الأخرى في موازنتها للعام ٢٠١٠ مبلغا وقدره دولار واحد عن كل برميل نفط منتج أو مكرر، وخصصت دولاراً واحداً عن كل ١٥٠ متر مكعب من الغاز المنتج، فضلا عن تخصيص ٥٪ من إجمالي الإيرادات المتحققة من المنافذ الحدودية بهدف دعم عمليات التنمية في تلك المحافظات لكن أهالي القضاء يشكون من الأوضاع الخدمية المتردية، ومن عدم اقتسام مخصصات محافظة البصرة بشكل عادل بين الأقضية التابعة لها.

وتحصل البصرة وفق القانون الجديد على أكثر من مليوني دولار يوميا، إذ أن إنتاجها من النفط الخام وفق التقارير الحكومية يتجاوز ١,٨ مليون برميل يوميا عدا عن بقية الايرادات.

ويضم القضاء ثلاث نواحي مهمة اقتصاديا هي ميناء أم قصر ٤٥ كم جنوب غرب البصرة، وهو أكبر ميناء عراقي. وحقول الشعيبة النفطية، ومزارع الطماطم في سفوان.

كما تمر في الزبير خطوط أنابيب النفط الممتدة من مناطق الرميلة الشمالية والجنوبية وغرب الطوبة وشمال البصرة والطرق الاستراتيجية وخطوط سكك قطارات الحمولة.

وكانت شركة إيني الإيطالية التي تقود تحالفا مع شركتين أخريين هما «أوكسيدنتال بتروليوم» الأمريكية، وشركة «كوريا الجنوبية» للغاز، قد وقعت عقود تطوير آبار حقل الزبير النفطي التي يبلغ إنتاجه حالياً ٢٠٠ ألف برميل يومياً، ليصل إلى مليون و٢٠٠ ألف برميل يومياً خلال الفترة القادمة. ويتوقع الأهالي أن يحصلوا على مخصصات «توازي نسبة إنتاجهم من النفط ومن الموارد الحدودية الأخرى».

وعلى الرغم من المطالب المستمرة بتحويل قضاء الزبير إلى محافظة إلا أن الفكرة

لا تبدو واقعية أو ممكنة التحقق بسبب عدم وجود قانون حديث يتيح جعل الزبير محافظة إلا أن المطالبين يستندون على قانون المحافظات رقم ٥٩ لعام ١٩٦٩ حيث تنص المادة ٤ من القانون رقم ٥٩ بخصوص التقسيمات الإدارية على أن تستحدث المحافظة ويعين ويغير مركزها واسمها وتعدل حدودها ويفك ارتباط الأقضية والنواحي منها بمرسوم جمهوري يصدر بناء على اقتراح الوزير وموافقة السلطة التشريعية.

فيما ترى جهات في الحكومة المحلية أن نبرة التصعيد التي تعتمدها بعض الأطراف في القضاء تثير الشكوك بوقوف «أجندات خارجية» وراءها لتفتيت البصرة الغنية بالنفط.

وتأخذ هذه الجهات بعين الاعتبار، أن الزبير تضم النسبة الأكبر من الطائفة السنية في جنوب البلاد، وتتشابه في العادات والتقاليد المجتمعية مع دول الخليج وترتبط بوشائج مصاهرة مع عائلات في دولة الكويت وعشائر منطقة نجد، كما تربطها آبار مشتركة مع جوارها الخليجي ، كما أن تحويل الزبير إلى محافظة سيشجع أقضية أخرى في البصرة مثل قضاء القرنة الذي يضم حقول مجون النفطية العملاقة على الانفصال عن المحافظة الأم .